

مكانة "الإنسان"

في الفلسفة الأخلاقية العربية

قراءة في الفكر الأخلاقي لـ:

"أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب، مسكويه"

(325 – 421 هـ)

ابراهيم ونزار

باحث مغربي



قسم العلوم الإنسانية والفلسفة

جميع الحقوق محفوظة

مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث

All rights reserved

Mominoun Without Borders

تسعى هذه الدراسة إلى الوقوف عند جانب من الإنسية Humanisme العربية الإسلامية خلال القرن الخامس الهجري/عشر الميلادي، ويتمثل هذا الجانب أساساً في "علم الأخلاق العربي" الذي أسس له كتاب: "تهذيب الأخلاق" لأبي علي مسكويه (325 – 421 هـ).

ولعل التركيز على مفهوم "الإنسان" في رصد تجلياته داخل الفلسفة الأخلاقية لهذه المرحلة، معيار يقيس المكانة التي يحتلها (الإنسان) في لحظة ما من لحظات الفلسفة العربية.

سيُنتهَجُ في مقاربة مفهوم "الإنسان"، على ضوء الفلسفة الأخلاقية لمسكويه في كتاب "تهذيب الأخلاق"، سبيل يُعَرِّجُ على:

1- الضمير الأخلاقي الواعي باعتباره مصدر الفعل المحض.

2- طبيعة السلوكات الأخلاقية التي تُنظَرُ لها الفلسفة الإنسية العربية.

3- إشكالية الحرية والضرورة في علاقتها بالفعل الإنساني.

يشغل "الإنسان" مكانة مرموقة في المنظومة الفكرية لأبي علي مسكويه، باعتباره محور القيم والمعرفة والوجود. ويتحدد هذا "الإنسان" بما هو كيان أخلاقي بالأساس، تنبع عنه القيم من اختياره، وبإعماله لملكاته الفكرية التي بموجبها يحقق الفضائل بما هي نقيض للردائل¹، إلا أن هذه الغاية السامية -الفضيلة- التي يعلو بها "الإنسان" على غيره من الأنواع في الطبيعة، تستند هي الأخرى إلى قواعد وضوابط منطقية تجعل من هذا الخلق أو ذلك، قابلاً للحصول بشرط ثبوت الإرادة والاختيار. وقبلهما يكون الوعي الأخلاقي -الضمير-²، هو ما يجعل من كل ممارسة أخلاقية فردية كانت أو جماعية، تنبع من ذاتها وتسعى إلى تحقيق ذاتها بما هي جوهر لذاتها. فإذا حصل هذا الشرط الذي تكون بموجبه الأخلاق خاصة لذاتها، ونابعة من الجانب الأخلاقي في العقل، جاز القول: إن "الإنسان" عند مسكويه: كائن أخلاقي بالأساس.

ينصب اهتمام مسكويه في كتاب "تهذيب" على دراسة بعض السلوكات الإنسانية وفق منهجية علمية صارمة. وفي هذا الصدد يقول عماد الهلالي: «(...) تؤدي طبيعة تكوين نظرية أخلاقية عند مسكويه في بعدها المعرفي الذي يربط الأخلاق بالاجتماع، وفي بعدها الواقعي... إلى قيام الأخلاق على وعي عقلي، وليس فقط

¹ - مسكويه (أحمد بن محمد بن يعقوب)؛ تهذيب الأخلاق؛ دراسة وتحقيق: عماد الهلالي، منشورات الجمل - الطبعة الأولى - 2011م، أنظر: المقالة الثانية والثالثة.

² - نستعمل مفهوم "الوعي الأخلاقي" هنا، للدلالة على الأفعال التي يروم مسكويه تثبيتها في سلوك "الإنسان" بشكل خالص، وهي أخلاق تعكس ذاتها وجوهرها، ولا غاية أخرى من ورائها.

على نصوص نقليّة»³. لذلك، فإن كل قراءة في نصوص كتاب "التهديب" تستلزم بالأساس، ألا يُغفل جانبان اثنان:

الأول: أن المنظومة الأخلاقية لمسكويه تنفصل عن كل اعتقاد سائد داخل المجتمع؛ بمعنى أنها تؤسس لإصلاح على مستوى القيم الفردية والجماعية، حين يعود في كل مرة، وهو يُخاطب العقل بما هو معيار التصرف في الحياة العامة والخاصة. والعقل هو الذي يتأسس عليه الدافع نحو التخلُّق. كما أن هذه الأخلاق أيضاً إنسية بالأساس، فهي انعكاس للاختيار والقدرة التي يمتلكها "إنسان" مسكويه في تقويم سلوكياته.

أما الثاني: فيمكن في اختياره للأخلاق التي وردت في الشريعة الإسلامية، مستندا على المصدرين الأساسيين: الكتاب والسنة، من خلال استشهاده ببعض النصوص منهما من جهة، وكذا محاولة التوفيق بين هذه المضامين، وتلك التي تمثل العقل اليوناني، والمتمثلة بالأساس في نصوص: أرسطو-Aristote (384-322 ق.م)، جالينيوس-Galenus (200-130 م)، أفلاطون-Platon (428-348 ق.م)، وشروحات فورفوريوس-Porphry (305-233 م)...، وشيء يسير من الحكمة الشرقية من جهة ثانية. وكل هذا حتى يتسنى للرجل مطابقة منظومتين ودمجهما، فلا يبقى هنالك وجه للتناظر والتناقض بينهما. وبهذا سيتمكن من إرساء مشروعه الأخلاقي، والاجتماعي، والسياسي، بعيدا عن كل اعتبارات تجعل هذه الأخلاق صالحة لزمان وغير صالحة لآخر، وكذا تجنب نقد التيارات المحافظة الذي كان له الصوت الأعلى في تلك الفترة خاصة⁴.

إذا كانت الأخلاق مؤسّسة على عنصر الوعي والحرية أساسا، فإلى أي حد يشكل هذا الوعي الأخلاقي انعكاسا لإرادة العقل؟ وكيف يجسد الهوية الأخلاقية لـ"الإنسان"؟

1- الوعي الأخلاقي - الضمير :-

« (...) والفعل إذا كان محضا فليس يفعلُه فاعل من أجل شيء آخر غير الفعل نفسه»⁵

برز تجسيد الملكة الفكرية لدى "الإنسان"، في قدرته على التمييز بين الخير والشر، الجميل والقبيح، الفضيلة والرذيلة...، ومن هذه القاعدة يُستخلص الوعي الذي ينبثق عن العقل الفاعل لا المنفعل، ذلك أن الأول يصدر عنه الفعل بعيدا عن الإكراه الخارجي، فهو فعل لذاته ولا عامل خارجي يؤثر فيه. أما الثاني، فهو الذي تخرج فيه الذات عن الاختيار ويكون الفعل في هذه الحالة استجابة لنداء خارجي، في الوقت الذي يشكل فيه **الوعي الأخلاقي استجابة للنداء الداخلي الذي يقرُّ - مسكويه - بوجوده في كل كائن بشري.** يقول المعلم

³ - المصدر السابق، ص 438

⁴ - نقصد النقد الذي تفوده التيارات التقليدية المحافظة، من خلال انتصارها للوعي على حساب العقل.

⁵ - مسكويه (أحمد بن محمد بن يعقوب)؛ تهذيب الأخلاق؛ دراسة وتحقيق: عماد الهلالي، ص 318

الثالث: «(...) فإن النفس وإن كانت تأخذ كثيرا من مبادئ العلوم عن الحواس، فلها من نفسها مبادئ آخر وأفعال، لا تأخذها عن الحواس البتة، وهي المبادئ الشريفة العالية التي تنبني عليها القياسات الصحيحة، وذلك أنها إذا حكمت أنه ليس بين طرفي النقيض واسطة، فإنها لم تأخذ هذا الحكم من شيء آخر، لأنه أولي، ولو أخذته من شيء آخر لم يكن أوليا»⁶. وما كان سابقا في النفس من قابلية تحصيل المعارف فهو نفسه الذي سيجعلها قابلة لتحصيل الأخلاق. وقد يذهب هذا النص بمعانيه إلى أبعد من هذه النقطة، ليفصل بين قضيتين اثنتين:

الأولى: في أن المعرفة الحسية، هي معرفة من الخارج؛ أي أنها خارجة عن الذات بما هي معيار المعرفة والقيم. وهذا يعني أن الحس لا يشكل معيارا ناجعا لبلوغ الحقيقة بقدر ما يسهم في الزيف والخداع. ولمسكويه نقد قوي وجهه **للمنهج الحسي في المعرفة**، حيث يقول: «(...) ونحن نجد النفس العاقلة فينا تدرك شيئا كثيرا من خطأ الحواس في مبادئ أفعالها وتردُّ عليها أحكامها. من ذلك، أن البصر يخطئ في ما يراه من قرب ومن بعد»⁷.

أما الثانية: فمردها إلى الذات الفاعلة، والمفكرة، والموهوبة من وسائل الفهم والوعي ما يجعلها حقًا، محورا للمعرفة، كي تحقق انطلاقا من ذلك وعيا أخلاقيا تفصل بموجبه بين المتناقضات فصلا ذاتيا بشكل واع.

الأهم في هذا الصدد هو القضية الثانية، التي برزت كقيمة كبرى يتأسس عليها مسار السلوك الإنساني بالاختيار الذي لا ينطلق من لا شيء، بل من مقولات قبلية معطاة، تشكل العتبة الأولى لولوج مستوى الوعي الأخلاقي الخالص الذي يتوخى «(...) إصابة الخلق الشريف الذي يشرف شرفا ذاتيا حقيقيا، لا على طريق العرض الذي لا إثبات له ولا حقيقة، أعني المكتسب بالمال والمكاثرة، أو السلطان والمغالبة، أو الاصطلاح والمواضعة»⁸. فالشرط الذاتي إذن، متوفر في كل عنصر بشري، فهو ما يقوده إلى فعل الخير بما هو خير في ذاته ولذاته، ولا ينفعل بتأثير خارجي فيصير عرضا؛ والعرض إنما هو ما يلحق الذات التي تقبل الانفعال والتجزئ والفساد. وبالتالي لا يمكن أن تقوم عملية استنهاض الوعي في الذات على عنصر عرضي لا يقبل الاستقرار والثبات، وهذان الشرطان أساسيان داخل المنظومة الأخلاقية لمسكويه. فالاستقرار من صفات الجواهر، لأن الجوهر لا يلحقه العرض ولا يأتيه الفساد، مما يفسر صلاحيته العقلية والعلمية⁹، وهو ما يضمن كذلك الثبات كنتيجة لامتداد السلوك الواعي في الزمان والمكان. ومن هنا ستكون إضافة **العنصر المعرفي** مهمة

⁶- مسكويه (أحمد بن محمد بن يعقوب)؛ تهذيب الأخلاق؛ دراسة وتحقيق: عماد الهلالي، منشورات الجمل - الطبعة الأولى - 2011م، ص 240

⁷- المصدر نفسه، ص 241

⁸- المصدر نفسه، ص 234

⁹- "العلمية" بمنظور عصر مسكويه.

في تأسيس هذا النوع من الوعي (الأخلاقي). يقول مسكويه: «فمتى كانت حركة النفس الناطقة¹⁰ معتدلة وغير خارجة عن ذاتها، وكان شوقها إلى المعارف الصحيحة لا المظنونة (...) وهي بالحقيقة جهالات، حدثت عنها فضيلة العلم وتتبعها الحكمة».¹¹

حين وقف مسكويه على دلالات هذا المعنى بشكل أدق، وهو يقارب مفهوم "الخير" في المقالة الثالثة، اعتبره نتاجاً للوعي بما هو استحكام للحكمة الصحيحة في النفس وقيادتها لسائر ملكاتها، والغاية الأسمى من وراء كل اختيار. وقد أورد المعلم الثالث أسوة بالمعلم الأول أرسطو-Aristote، قائلاً: «...» ومثال ذلك أن الصناعات والهمم والتدابير الاختيارية كلها يقصد بها خير ما، وما لم يقصد به خير ما، فهو عبث والعقل يحظره ويمنع منه»¹². تتسم هذه الفلسفة الموجهة للفعل الإنساني، بطابع القصدية التي تصرف كل سلوك في اتجاهه الصحيح، ومن مصدره أيضاً. وقد سبق الحديث عن أساس الخلق الذي هو العقل الأخلاقي الفردي بالأساس. فإذا توفر هذا الأساس، كانت جلّ الفضائل بعده كاملة محضة وأصيلة. ولكن، وفق أي نموذج يصوغ مسكويه هذه النظرية؟ وقياساً بأي مثل يبني فكرة الوعي هذه؟

إذا جاز القول: إن مسكويه رام تحقيق التمام¹³ لـ "الإنسان"، وإيصاله إلى أعلى مستويات إنسانيته. ولذلك، فلا بد من وجود صورة قبلية في ذهنه يطابق عليها مستوى الأخلاق عند "الإنسان". والنص التالي يوضح هذا المغزى ويجيب على الإشكال المطروح أعلاه. يقول مسكويه: «فهذه الحال هي آخر رتب الفضائل التي يتقبل فيها الإنسان أفعال البدء الأول، خالق الكل عزّ وجلّ، أعني أن يكون في ما يفعله لا يطلب به حظاً ولا مجازاة ولا عوض ولا زيادة، لكن يكون فعله بعينه هو غرضه، أي ليس من أجل شيء آخر سوى ذات الفعل»¹⁴. فالنموذج الذي يقيس عليه مسكويه إذن، هو "الله"¹⁵، بما هو خير أول وجوهر بسيط؛ فهو الذي يصدر عنه الفعل لذاته وفي ذاته مستقلاً عن إكراه الخارج وتأثيراته العرضية. وحين يصير "الإله" هو النموذج في صدور الأفعال الأخلاقية، فهو أيضاً وبشكل ضمني، غاية هذه الأفعال، والمثال الذي يجب السعي وراءه لتحقيقه (المثال) في ذات "الإنسان". إن "إنسان" مسكويه كيان يسعى إلى الألوهية من باب الحكمة والأخلاق¹⁶. وبهذا يظهر مفهوم "الله" بما هو تجل متعال للمثال الحي والأرقى لـ "الإنسان"، ولا يكون السعي إليه إلا باتخاذ طرق

¹⁰ - يقصد بها: العاقلة.

¹¹ - المصدر السابق، ص 248

¹² - المصدر السابق، ص 308

¹³ - "التمام": هو رتبة يبلغها "الإنسان" عن طريق الحكمة، حتى يتعالى عن الحس وما يرتبط به من الأعراض، وهو أعلى ما يمكن أن يصل إليه "الإنسان" بالإجتهد في الفضائل في نظر مسكويه.

¹⁴ - المصدر السابق، ص 318

¹⁵ - يجب الانتباه هنا إلى أن "الله" مفهوم فلسفي، ولا علاقة له بمفهوم "الإله" في المعتقد الإسلامي التقليدي.

¹⁶ - أنظر: المقالة الثانية والثالثة من كتاب "التهديب".

"الإله" في الأفعال والتدابير جميعها. وأول السبل إلى بلوغ ذلك، هو العقل بما هو عقل للنفس عما يضعها، وحثها على ما يرفعها.

يفصل مسكويه بين مفهومين اثنين: "الإلزام" و"الالتزام"¹⁷، فـ"الإلزام" انفعال الذات أمام الترهيب وخشية العقاب، ويخرج بسببه الفعل عن القصدية التي ذكرت سابقا، والتي هي قصدية لذاتها، ليصير الفعل من خارج وعي الذات بذاتها. ويكون "الخير" - مثلا- خيرا لا لذاته، بل لسبب آخر خارجي (كطلب الرئاسة أو الرياء أو الشهرة...). أما "الالتزام" فهو الذي يتعاقد بموجبه "الإنسان" مع وعيه الأخلاقي النابع من تعقله واختياره، فتصدر الأخلاق عنه كلها محضة وخالصة، ونابعة من داخل هذا التعاقد الذاتي، وهو ما يشكل « مصدر {الالتزام} بالفضيلة الخلقية عند مسكويه (...)، وهذا يعني أن العقل يصدر أمرا يلزم اعتباره لتحصيل الفضيلة، بل إن تحصيلها متوقف على الالتزام بهذا الأمر»¹⁸.

بهذا المعنى، يكون المدخل الأساسي إلى فهم المنظومة الأخلاقية لمسكويه، هو الإجابة عن سؤال المصدر الذي انبثقت عنه هذه الأخلاق التي يرتبها المعلم الثالث في مدونته (تهذيب الأخلاق)، حيث إن استعداد الذات لتقبل الأخلاق عن طريق التهذيب، لا يكتمل إلا إذا كانت النفس الناطقة قد حصلت لنفسها من الحكمة والمعرفة ما يكفي لتتجنب المدارك السقلى، وتطمح إلى العليا. ثم يأتي بعد: "قابلية التخلق" و"تحصيل المعرفة اليقينية" مرحلة مهمة يمكن وصفها بأنها نتيجية لهذا التفاعل الداخلي والعملي - الواقعي- في الآن ذاته. إنها مرحلة "النقد الذاتي" التي برزت ضمنا في النصوص السالفة الذكر، وهو حالة يراجع فيها الإنسان كل سلوك قبل أن يصدر عنه، من خلال معرفة مصدره (يعني هل صدر عن اختيار ومراجعة عقلية أم عن انفعال عاطفي) وغايته (يعني هل هو فعل لذاته أم لغرض آخر)¹⁹. وقد فسر محمد أركون هذا الطرح فقال: «(...) كل فضيلة بحاجة إلى تيقظ نقدي في كل لحظة لكي يحصل العمل الفاضل في الوقت المناسب تماما، وذلك طبقا للغاية المبتغاة منه، وبحسب ضرورتها»²⁰.

إذا كان المعيار الذي تتأسس عليه الأخلاق هو الوعي بها، وكان معيارها هو "الإنسان" في سعيه لتحقيق تجسيد أكبر لذاته (محاكاة أفعال "الله")، فأين يكمن الجانب المعقول في هذا؟ وكيف يمكن تفسير الفكرة القائلة بأن أخلاق مسكويه، علمية بالأساس وواقعية؟ وما موقع "الإنسان" داخلها؟

¹⁷- لم يورد مسكويه هذه المفاهيم بالدلالة نفسها التي استعملت هنا، بل نستنبط هذا التفريق بين الفعل الأخلاقي الحر والمتعالي عن كل إكراه خارجي-الالتزام، وبين الفعل الإلزامي الخارجي الإكراهي الذي يرفضه المعلم الثالث، من سياقه العام. أنظر: المقالة الثالثة والرابعة من كتاب: "تهذيب الأخلاق".

¹⁸- العمرو (عبد الله بن محمد)؛ الأخلاق بين المدرستين: السلفية والفلسفية (مسكويه وابن القيم نموذجاً)؛ سلسلة: الرسائل الجامعية -1421هـ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، السعودية -1427/2006م، ص ص 264-265

¹⁹- رأينا مثال "الخير" فيما سبق، راجع المقالة الرابعة من كتاب "التهذيب".

²⁰- أركون (محمد)؛ نزعة الأنسنة في الفكر العربي: جيل التوحيدي ومسكويه؛ ترجمة: هاشم صالح، دار الساقي، بيروت/لبنان- الطبعة الأولى 1997م، ص 481

2- الأخلاق: بين الإنسانية والعلمية والواقعية:

« غرضنا في هذا الكتاب أن نحصل لأنفسنا خلقا تصدر به عنا الأفعال كلها جميلة، وتكون مع ذلك سهلة لا كلفة فيها ولا مشقة».²¹

شكّل الوعي الأخلاقي قاعدة أساسية تنبني عليها كل السلوكات الإنسانية، حيث تجعل من الفعل جوهرًا في ذاته، وتفصله عن كل غرض خارجي -عرضي- يفسد غايته السامية. وإلى جانب هذا الوعي، يلاحظ بشكل قوي مدى المكانة التي يشغلها "الإنسان" بما هو مقوم. فـ"الإنسان" عند مسكويه كائن أخلاقي لا بد له من أن يكون كذلك، حتى إن هويته ملازمة لهذه الصفة. وبما أن الأمر كذلك، فإن كل تنظير وضعه المعلم الثالث في كتاب "التهذيب" يخص الأخلاق بالأساس، يُوضع "الإنسان" في مركزها بوصفه معيارًا أوليًا ومطلقًا. يقول أبو علي: « غرضنا في هذا الكتاب أن نحصل لأنفسنا خلقا تصدر به عنا الأفعال كلها جميلة، وتكون مع ذلك سهلة لا كلفة فيها ولا مشقة».²² يظهر المقصد من تصنيف مدونة "التهذيب" إذن، في وضع منهجية واضحة، عملية وسهلة، لتحصيل الخلق الجميل، يصدر عن "الإنسان".

إذا كان هذا التحديد الوجيه هو الغرض من تأليف كتاب "التهذيب"، فإن أهم ما فيه هو "مصدر الأخلاق" الذي هو: "الإنسان". بهذا المعنى سيكون مسكويه، قد رسم معالم الفكر الأخلاقي في عتبات الكتاب، حين حدد مصدرها في "الإنسان".

حدد مسكويه "الإنسان" من خلال مستويين اثنين: انطلق في الأول من التحديد الفيزيولوجي، حين فصل بين الجانب المحسوس (الجسم) والنفس (المجردة)، مبرزًا خصائص كل واحد منهما. أما المستوى الثاني، فقد انفرد فيه بالحديث عن النفس (التحديد السيكولوجي) وأحوالها وما يرتبط بها من الأفعال. وكأن الكتاب في مجمله يولي للنفس من الأهمية ما تصير به هي جوهر "الإنسان"²³، فيصير الجسد في مواضع كثيرة عائقًا أمام تحقيق الفضائل. لذلك، فالنفس أولى أن تهذب.

اختار مسكويه إظهار خصوصية النفس من خلال مقارنتها بالجسم في المقالة الأولى؛ فأشار إلى أن الجسم لا يقبل صورة أخرى إذا كانت به صورة قبلها؛ بمعنى أنه أحادي الدلالة والمفهوم. وقد أورد مسكويه في ذلك مثالًا قائلاً: «(...) إذا قبل الشمع صورة نقش الخاتم، لم يقبل غيره من النقوش إلا بعد أن يزول عنه رسم النقش

²¹- مسكويه (أحمد بن محمد بن يعقوب)؛ تهذيب الأخلاق؛ دراسة وتحقيق: عماد الهلالي، ص 233

²²- مسكويه (أحمد بن محمد بن يعقوب)؛ تهذيب الأخلاق؛ دراسة وتحقيق: عماد الهلالي، منشورات الجمل - الطبعة الأولى - 2011م، ص 233

²³- نشير هنا إلى أن التقسيم الذي اعتمده مسكويه بين النفس والجسد، لتبيين خصائص كل منهما ودورها في صدور الأخلاق، يجد له أصولًا عند الفيلسوف اليوناني أفلاطون -Platon-. أنظر: التكريتي (ناجي)؛ الفلسفة الأخلاقية الأفلاطونية عند مفكري الإسلام؛ دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، كما ساعدت جامعة بغداد على نشره أيضًا، ص 230

الأول»²⁴. تبرز هذه المماثلة بين حالة الجسم وحالة الشمع استنتاجاً أساسياً، وهو: أن الجسم له توجه واحد ومحدد على المستوى الفيزيولوجي من جهة، وتمهد كذلك الحديث عن "النفس" التي هي عكس ما قيل في الجسم، إذ أننا «...» نجد أنفسنا تقبل صور الأشياء كلها على اختلافها من المحسوسات والمعقولات على التمام والكمال، من غير مفارقة للأولى ولا معاقبة ولا زوال رسم، بل يبقى الرسم الأول تاماً كاملاً، وتقبل الرسم الثاني أيضاً تاماً كاملاً»²⁵. يمكن اعتبار هذا التعبير عن النفس، بأنه قوِّعةٌ للأخلاق داخل كتاب "التهديب"، حيث إن النفس حين ثبت قبولها للصور العديدة والمختلفة في الآن ذاته، كان لذلك وقع على السلوك الإنساني الذي يلحقه التناقض في كثير من الأحيان²⁶. ومن هنا سيؤسس مسكويه لفلسفة أخلاقية إنسية معقولة، تؤهّل النفس البشرية لرفع التناقض عن صور نفسها حتى يحصل لها الصفاء الكافي لتصدر عنها "الأفعال كلها جميلة". كما يأتي بعد هذا الحديث، قول آخر ينظر إلى النفس في أخلاقها نظرة منهجية، يكون فيها التساؤل عن الكيفية التي يصبح بموجبها "الإنسان" متخففاً؛ بمعنى: هل يكون "الإنسان" ذا خلق منذ الولادة، فيكون هذا "مزاجه" الفطري، أم أنه يتعود عليه حتى يصير "عادة"، أم يُحصّل بـ "التأديب"؟

يجمع مسكويه بين كل هذه العناصر المفضية إلى حصول الخلق عند "الإنسان" فيقول: «...» وأنت تكثفي في تعلم الأخلاق بأنها قوى ثلاث متباينة، تقوى إحداها وتضعف بحسب المزاج أو العادة أو التأديب»²⁷. اعتبر مسكويه أن الأساسي والمهم في تعلم الأخلاق، هو المعرفة بأنها مرتبطة وملازمة لهذه العناصر (المزاج، العادة، التأديب)، إلا أن ما سيعتمده المعلم الثالث كمنهج في وضع أخلاق إنسية ومعقولة، هو العنصر الثالث: "التأديب". ذلك أن هذا الأخير، هو الذي يسمح بجعل الأخلاق فعلاً يكون "الإنسان" معياراً له ومطابقاً لواقعه العملي والنفسي. فمن حيث الواقع النفسي، نجد أن مسكويه لا يقدم أفكاراً يوتوبية²⁸. والنص التالي يعبر عن الصراع الداخلي الذي تعيشه الذات، ويعكس طبيعية واقعية في "الإنسان"، يقول: «فإن أنت أثرت الفعل الجميل في وقت، وجاذبتك القوة الأخرى إلى اللذة وإلى خلاف ما أثرت، فاستعن بقوة الغضب التي تثير وتهيج بالأنفة والحمية، واقهر بها النفس البهيمية، فإن غلبتك مع ذلك ثم ندمت وأنفت فأنت في طريق الصلاح فتم عزيمتك واحذر أن تعاودك بالطمع فيك والغلبة لك»²⁹. لا ينكر مسكويه الطبيعة التي جُبل "الإنسان" عليها، من حيث هو كائن "حيواني" له رغبات لا بد من إشباعها، ولكنه يضبط مجالها بحدود وضوابط معقولة، لا تجعل "الإنسان" ملزماً، بل ملتزماً مع ملكته "الناطقة" (ملكة التفكير والحكمة: "العقل")، على أن لا يعود لما يحطُّ

²⁴- مسكويه (أحمد بن محمد بن يعقوب)؛ تهذيب الأخلاق؛ دراسة وتحقيق: عماد الهلالي، منشورات الجمل - الطبعة الأولى - 2011م، ص 238

²⁵- المصدر نفسه، ص 238

²⁶- نقصد أن الإنسان تصدر عنه الأفعال بموجب هذا التنوع الذي تقبله النفس، سلوكات مختلفة كـ "الخير" و "الشر" في الآن ذاته.

²⁷- المصدر السابق، ص 248

²⁸- اليوتوبية: مصطلح يطلق على الأفكار التي يصعب تنزيلها على أرض عملياً، لتعاليتها وتجاوزها للسقف الواقعي داخل حياة الأفراد والمجتمعات. لذلك تُصنف بعض الكتابات في السياسة، والأخلاق، والتربية على أنها كتابات يوتوبية، ومنها كتاب: "الجمهورية" لـ "أفلاطون".

²⁹- المصدر السابق، ص ص 287-288

من إنسانيته من مبالغة في إشباع رغبات الجسد. ف"الإنسان" يأت الفعل الذي هو عكس نيته، حيث ينوي الخير، وتجذبه النفس الشهوانية إلى ما ينتج عنه شرّ. هذا ما يثبت أن "الإنسان" ليس خارجا عنه مصير أخلاقه، بل وحتى تغييرها، لأن كل فعل يصدر عنه، فإنما يكون من إحدى القوى الثلاث للنفس³⁰، وما عليه سوى حفظ التوازن بينهما لتحقيق هدف جوهري وهو: بلوغ "الإنسان" إنسانيته من خلال ملكاته. وكأن هذا الصراع **السيكولوجي** الذي صورّه مسكويه، وقدم فيه علاجاً، هو ما تختصره العبارة الشهيرة لأحد أعلام عصر المعلم الثالث ورفاقه في الغامرات الفكرية، وهو أبو حيان التوحيدي³¹ حين قال: «(...) إن الإنسان قد أشكل عليه الإنسان»³². هذا في ما يخص الواقع النفسي.

أما **الواقع العملي**، فهو لا ينفصل كثيرا عن **الواقع النفسي**؛ فالأول يرتبط بالسلوك الخارجي النابع من قرار نفسي؛ والثاني يكون قاعدة له. فإذا كان **الجانب النفسي** يفرض على "الإنسان" عملية توازن داخلية، فإن **الجانب العملي** يخرج الرغبة النفسية من أجل تحقيقها دون أن تتعارض مع الفضيلة الإنسانية التي يختارها العقل، كـ «(...) حسن الحال من الدنيا، وطيب العيش وجميل الأحداث، وقلة الأعداء وكثرة المدّاح والراغبين»³³. تبدو هذه الغايات ماديّة محضة، إذ ترتبط بمسائل حسية يمكن اعتبار مصدرها: **النفس الشهوية/الشهوانية**، إلا أنها انعكاس للطبيعة البشرية في حياتها اليومية وعلاقتها الاجتماعية.

ومن هذا المنطلق تبرز القيمة المضافة للفكر الأخلاقي عند مسكويه، بما هي قيمة تراعي متطلبات "الإنسان" ورغباته ليس فقط من خلال هذه الحاجيات التي يرغب فيها، بل حتى في أثناء خضوعه لأشكال من التربية والتأديب، يشعر بنوع من الملل جراء الصرامة الأخلاقية التي تقيد رغباته وميولاته. وقد قدم خير مثال في هذا، حين تحدث عن الآداب الخاصة بالصبيان في المقالة الثانية، وانتبه إلى هذا العزوف المفاجئ الذي يكون سببه في بعض الأحيان هو الرغبة في العودة إلى الذات واحتياجاتها، وفي هذا الإطار، يقدم حلّه قائلاً: «(...) وينبغي أن يؤدّن له (يقصد الصبي الناشئ) في بعض الأوقات أن يلعب لعباً جميلاً، ليستريح إليه من تعب الأدب»³⁴. من هنا، يمكن استخلاص الأبعاد **الإنسية** إلى جانب **الواقعية** في المنظومة الأخلاقية لمسكويه. كما أن تأكيد مسكويه على عنصر "التأديب"، مطابق للسقف النظري الذي كانت تقاس به صحة القضايا المنطقية والرياضية. يقول المعلم الثالث: «(...) كل خلق يمكن تغييره، ولا شيء مما يمكن تغييره هو بالطبع،

³⁰ - القوة العاقلة والقوة الغضبية والقوة الشهوانية.

³¹ - هو علي بن محمد بن العباس أبو حيان التوحيدي البغدادي (310 - 414 هـ) ولد في بغداد، وهو فيلسوف وأديب ومتكلم ومتصوف، عاصر أبو علي مسكويه، وأفرداً معاً كتاباً يضم أسئلة لأبي حيان (الهوامل) وأجوبة عليها من أبي علي مسكويه (الشوامل)، وعنوان الكتاب هو: "الهوامل والشوامل"، وتوفي التوحيدي في شيراز. أنظر معجم الأدباء: "إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب" لـ: ياقوت الحموي، الجزء الخامس: حرف العين.

³² - مسكويه (أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب الرازي الأصبهاني)؛ **الهوامل والشوامل**: سؤالات أبي حيان التوحيدي لأبي علي مسكويه؛ تحقيق: سيد كسروي، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - 1422 هـ - 2001 م، الطبعة الأولى، ص 216

³³ - مسكويه (أحمد بن محمد بن يعقوب)؛ **تهذيب الأخلاق**؛ دراسة وتحقيق: عماد الهلالي، منشورات الجمل - الطبعة الأولى - 2011م، ص 294

³⁴ - المصدر نفسه، ص 293

فإذا لا خلق ولا واحد منه بالطبع، والمقدمتان صحيحتان، والقياس منتج في "الضرب الثاني من الشكل الأول"³⁵،³⁶ إذن، فإلى جانب الصفات المستنتجة ("الإنسية" و"المعقولية" و"الواقعية")، تتوَجَّدُ صفة أخرى من داخل علم المنطق الصوري الأرسطي³⁷، وهي صفة "العلمية". وقد ثبت ذلك بشكل صحيح، حين تضمّن المقتبس أعلاه، دليل صحة القضية المعالجة بالقياس الحملي³⁸ المنطقي، لتأخذ القضية شكلها "العلمي" العقلاني، وتوضح كالتالي:

كل خلق يمكن تغييره	المقدمة الكبرى
←	
لا شيء مما يمكن تغييره هو بالطبع	المقدمة الصغرى
←	

النتيجة ← لا خلق منه بالطبع

يتجلى السحب الذي قام به مسكويه للخلق، في نقله من دائرة الطبع والفطرة، إلى رحابة التعلم والتأدب والاكْتِسَاب. وقد استند في ذلك على دراسة قضايا الخلق، دراسة منطقية أفضت إلى أنه مكتسب قابل للحصول بالتعلم، "ولا شيء من الخلق هو بالطبع". إذا كان الأمر كذلك، فلماذا يُصِرُّ مسكويه في مواضع عدة، على إبراز الطابع الإنسي، والواقعي، والعلمي للفعل الإنساني؟، بمعنى آخر، ما الغاية التي يرومها من وراء هذا التأكيد الشديد على إمكانية حصول الخلق لـ "الإنسان"؟! وهل يمكن اعتبار ذلك جواباً أو رداً على موقف يخالف هذا الطرح، ويقول بأن الأخلاق فطرية ولا سبيل إلى حصولها ما لم تحصل بالطبع؟

ينبغي في البداية الوقوف عند مصطلحين مركزيين ضمن هذه الإشكالات، وهما: "الخلق" و"الطبع". ونستهل ذلك بـ "الخلق": الذي هو في "لسان العرب" صفة تتخلق مع النفس، فترفع صاحبها أو تضعه، وهو: السجية بمعنى الطبع. ويعني كذلك أن "الخلق" مرتبط بما هو فطري وموجود بشكل قبلي في النفس الإنسانية، وبالتالي فـ"الخلق" فطري في لغة العرب³⁹، ولا يقصد به معنى الاكتساب، ولا يُستنتج منه ولا يفرضي إليه.

³⁵ - يقصد بالضرب الثاني من الشكل الأول: "CELARENT"، وهو ضرب منتج من ضرب الشكل الأول الذي تُرَدُّ إليه كل الأضرب الناقصة من باقي الأشكال الأخرى. أنظر: مهران (محمد)؛ مدخل إلى المنطق الصوري؛ دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة- 1994م.

³⁶ - مسكويه (أحمد بن محمد بن يعقوب)؛ تهذيب الأخلاق؛ دراسة وتحقيق: عماد الهلالي، منشورات الجمل - الطبعة الأولى، 2011م، ص ص 267-268

³⁷ - علم المنطق الصوري الأرسطي: هو علم وُضِعَ لعصمة العقل من الزلل. وسمي "صورياً": لأنه لا يخوض في جزئيات القضايا وشواذها، بل يستند في صحتها على العام والكلي والشائع والمشهور والطبيعي البديهي. وقد أسس له الفيلسوف اليوناني "أرسطوطاليس" قواعده وأسس النظرية، وجمعه من بعده تلامذته، ومن أبرزهم "فورفوريوس" الذي اعتمده مسكويه هو الآخر في مواضع عدة، كمرجع مهم في فلسفة أرسطو.

³⁸ - القياس الحملي: وهو قياس منطقي يعرفه أرسطو بأنه "قول متى فُرِّرت فيه أشياء معينة، نتج عنها بالضرورة شيء آخر مختلف عما سبق". أنظر كتاب: "التحليلات الأولى" لـ أرسطو.

³⁹ - أنظر: ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم)؛ لسان العرب؛ دار الصادر، بيروت/لبنان- الطبعة الرابعة 2005م، حرف الخاء.

ويلاحظ أن "الطبع" كذلك في لسان العرب لم ينفصل عن مرادفات "الخلق"، مما يعني أنهما متساويان في الدلالة والاصطلاح، حتى إنهما التقيا عند "الفطرة" كأصل يجمع معانيهما: أي أن الأخلاق لا دخل لـ"الإنسان" في صنعها كاستنتاج عام.

إذا كان هذا هكذا، فمن أين أتى مسكويه بمفهومه الجديد -نسبياً- لـ"الخلق"؟ وكيف نقله من دلالة "الطبع" والفطرة إلى معنى "التعلم" و"التأديب" و"الاكتساب" و"التطبع"؟

حدد صاحب لسان العرب الدلالة الأصلية لمصطلح "الخلق"، منطلقاً من سياق التداول العربي؛ فأفرز له معنى واحداً ليس كالذي يصير له فيما بعد. وهذا راجع إلى العوامل التاريخية والسياسية والاجتماعية التي فتحت المجتمع الإسلامي -الجديد- على الحضارات المجاورة ليحتك بها وبموروثاتها القيمة، فكان من الطبيعي أن يتأثر العقل العربي بكل هذه التمازجات الكبيرة والدقيقة في الآن ذاته، حتى صار يتلفظ بمصطلح أضحى له معنى جديد يخالف معناه الأصيل قبل دخول تلك الموروثات (الفارسية والإغريقية بالخصوص). لقد انطلقت حملات الترجمة منذ القرن الثالث الهجري بعد تأسيس "بيت الحكمة"⁴⁰ في بغداد، فازدهرت حركة نقل النصوص الفلسفية من العبرية والسريانية واليونانية والفارسية، وكان الوقع الأكبر، هو ذلك الذي أحدثه النص الإغريقي عامة والأرسطي المشائي خاصة. ويمكن القول: إن العقل العربي الإسلامي آنذاك قد أعجب بالمنطق والأخلاق والسياسة اليونانية، ولكن هذا لا يكفي لتبرير هذا الوقع الذي أحدثه هذا الموروث، بل يجب أن يضاف إليه عنصر الاستعداد وحصول شرط التلقي الذي وجد الذهنية العربية الإسلامية "المثقفة" مؤهلة بشكل كبير لاستقباله. بطبيعة الحال، سيكون لهذا الاحتكاك والتفاعل ثمنه، ويكفي ذكر ما حصل لمصطلح كـ "الخلق" حين انتقل من دلالة الطبع والفطرة، إلى أن صار مع مسكويه اكتساباً وتطبعاً وتأديباً، بفعل الحمولة الدلالية التي كانت للمرادف اليوناني خاصة، ودخلت معه إلى الثقافة العربية الإسلامية. ذلك أن الأخلاق اليونانية تؤمن في جانب ما أن الأخلاق عند "الإنسان" فيها جانب من الفطرة يولد معه ويصطبغ به بشكل قبلي، ولكنها (الأخلاق اليونانية) لا تنكر إمكانية الاكتساب والتطبع بخلق جديد في حال ما إذا كان يشوب ذلك الخلق الفطري سوء لا يليق بمقام الإنسانية. وعلى هذا الأساس انطلقت في السياقات الإسلامية الكلاسيكية التي عاصرها مسكويه، فلسفة جديدة في الأخلاق، تؤمن بالتطبع والتخلق من جهة، وتوافق المشروع التنويري العربي الإسلامي الذي بدأ مع المعتزلة⁴¹ في علم الكلام⁴² العربي، والكندي⁴³ في الفلسفة العربية الإسلامية، وانعطف في ما يخص مجال الأخلاق أساساً مع أبي علي مسكويه من جهة ثانية.⁴⁴

40- هو مؤسسة ثقافية وعلمية بدأ التفكير فيها منذ عصر الخليفة العباسي هارون الرشيد، وتحققت في الواقع على يد ابنه وخليفته المأمون. وكان يشرف على إدارتها الفيلسوف أبو يوسف يعقوب بن اسحاق الكندي، والمترجم اسحاق بن حنين.

41- المعتزلة: فرقة كلامية ظهرت في القرن الثاني للهجرة، تبنت موقفاً عقلياً في العقيدة والقيم والسياسة. وتناولت نصوص الوحي بمنهجية واقعية ومعقولة. وقد تأسست هذه الفرقة مع واصل بن عطاء الذي تبني موقفاً جديداً يعبر عنه بأنه "وسطي" في ظل النزاعات السياسية والمذهبية التي شهدتها الساحة الإسلامية آنذاك. وقد طرده (واصل بن عطاء) شيخه الحسن البصري من مجلسه بعد أن أجاب مقاطعاً كلامه على سؤال موجه إلى البصري من

يجيب محمد عابد الجابري على الإشكال المطروح أعلاه، منطلقاً من هذا الرصد الذي حصل مع مفهوم "الخلق" في انتقاله من المعنى الاصطلاحي في اللسان العربي، إلى الدلالة الفلسفية اليونانية الجديدة. ويعتبر الجابري أن مراد ذلك إلى الترجمة التي اضطرت إلى استعمال هذا المصطلح رغم ما يحمله من دلالة قد لا توافق الحمولة الثقافية العربية. وبهذا صار الفكر العربي الإسلامي يعتقد هو الآخر بفكرة إمكانية تهذيب الخلق وتعديله، بعد أن كان الخلق سجية وفطرة تَنخَلقُ مع صاحبها وتلازمه. إلا أن هذا الجواب يفسر الانتقال من الناحية التاريخية، وقد كفى ووقى. أما العامل الإبيستيمولوجي، فإنه سيُصيرُ الفكر الإسلامي فكراً إنسيّاً، يكون فيه "الإنسان" هو مركز القيم ومعياريها وضامناتها، إضافة إلى أنه واضعها. وفي السياق نفسه، سيُلمَحُ شعاع مذهب فلسفي جديد يختص بالأخلاق بعيداً عن تلك التي تُشتق من نصوص الوحي (القرآن وأحاديث السنة النبوية)⁴⁵، مع محاولات هنا وهناك لإضفاء نوع من المقبولية عليها (من خلال إدراج بعض النصوص الدينيّة إلى جانب النصوص الفلسفية الأخلاقية) عند العامة وعند أصحاب التوجّه الإسلامي "الأورثوذكسي"، بانتهاج التوفيق/التلّفيق بين مضامين الموروث الدّخيل (اليوناني) والنص المقدّس الإسلامي، وهذا المذهب، سيكون مسكويه أحد المؤسسين الأوائل له.⁴⁶

سيكون المعلم الثالث بهذا المعنى، عقلاً دافع عن معيارية "الإنسان" من داخل الثقافة الإسلامية، من خلال إخضاع السلوك لمنطق العقل. فـ«مسكويه لم يكن في الأخلاق فيلسوفاً نظرياً يقدّر النظريات فحسب، بل كان عملياً. إنه يبحث في الفضيلة ويبينها، وفي السعادة ويحددها، ثم يتبع هذا وذاك برسم الخطة التي تؤدي للظفر بهما»⁴⁷. سيتحدّد "الإنسان" من خلال هذا القول، بوصفه كائناً يطبّق الأخلاق بالقدر الذي يفكر فيها ويضعها. إلا أن البعد الذي رامته هذه الأخلاق، قد تتجاوز الحد المألوف لسقف الإنسانية، ذلك أن "الإنسان" لم يعد قادراً على الإتيان بالفضائل من ذاته ومن مكتسباته، بل صارت له بفضل المنظور الإنسي الذي ينظر منه مسكويه، إمكانية الوصول إلى حالة النبوة بالعقل، لتتحول النبوة هي الأخرى من حالة الاصطفاء الإلهي، إلى الاختيار

رجل قال له: "ما حكم مرتكب الكبيرة؟" فأجاب وأصل مكان شيخه: "هو في منزلة بين المنزلتين"، أي أن مرتكب الكبيرة ليس بكافر وليس بمؤمن، بل هو بينهما، وهذه منزلة يقدرها أهل الفقه بأنها منزلة: "الفسق".

⁴² - علم الكلام: يعرفه ابن خلدون بأنه: "علم الدفاع عن العقائد الدينية بالأدلة العقلية". وهذا التعريف هو السائد إلى حدود اليوم، لأنه جامع مانع. انظر: ابن خلدون (عبد الرحمن)؛ المقدمة؛ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت/لبنان، 2007م.

⁴³ - أبو يوسف يعقوب بن اسحاق الكندي (185-256 هـ)، يعتبر أول فيلسوف عربي مسلم في تاريخ الثقافة العربية الإسلامية.

⁴⁴ - انظر: الجابري (محمد عابد)؛ نقد العقل العربي(4): العقل الأخلاقي العربي: دراسة تحليلية نقدية لنظم القيم في الثقافة العربية؛ مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت/لبنان، الطبعة الأولى- آذار/مارس 2001م. الفصل الأول من القسم الأول.

⁴⁵ - انظر: تيزيني (طيب)؛ من اللاهوت إلى الفلسفة العربية الوسيطة-القسم الثاني-: الفلسفة العربية الوسيطة في تحققها؛ سلسلة: قضايا فلسفية، العدد الثاني، وزارة الثقافة، دمشق/سوريا 2005م، ص192

⁴⁶ - قبل مسكويه، يصعب الحديث عن وجود نص في فلسفة الأخلاق داخل الفكر الإسلامي الكلاسيكي يضاهي كتاب "تهذيب الأخلاق" الذي يعد مدونة كبيرة الأهمية في التراث الإسلامي خاصة، والإنساني عامة. وهذا موقف، يوافقنا فيه أغلب من تناولت أبحاثهم فكر مسكويه من الناحية الأخلاقية بالخصوص.

⁴⁷ - يوسف موسى (محمد)؛ فلسفة الأخلاق في الإسلام وصلاتها بالفلسفات الإغريقية (مع مقالة في الأخلاق، في الجاهلية والإسلام قبل عصر الفلسفة)؛ مطبعة الرسالة، دار الكتب الأهلية للنشر، الطبعة الثانية -1363هـ/1945م، ص 106

البشري. وإن ذلك لممكن لمن حصل له خُلق ارتقى بها مدارج الإنسانية، وهذا بُعد آخر من أبعاد الإنسانية في الأخلاق عند مسكويه. وفي هذا يقول: «(...) وأنه إذا صار إنسانا كاملا وبلغ غاية أفضقه، أشرق نور الأفق الأعلى عليه، وصار حكيما تاما تأتيه الإلهامات في ما يتصرف فيه من المحاولات الحكيمة والتأييدات العلوية في التصورات العقلية. وإما نييا مؤيدا يأتيه الوحي على ضروب المنازل التي تكون له عند الله تعالى ذكره، فيكون حينئذ واسطة بين المأل الأعلى والأسفل، وذلك بتصوره حال الموجودات كلها، والحال التي ينتقل إليها من حال الإنسانية، {إلى} مطالعة الآفاق التي ذكرناها»⁴⁸، وكان الناظر في نصّه هذا، سيخال نفسه أمام الفكرة الشهيرة التي سادت عند المعتزلة، والقائلة: "إن النبوة جزاء عن عمل"⁴⁹، قد يكون الأمر كذلك، إذا حصل توافق مع الرأي الشائع بخصوص امتداد علم الكلام ودخول قضاياها إلى الفلسفة بعد تحققها في الفكر الإسلامي عامة. وهذا ليس شيئا جديدا، مادام طرحا، له من الأدلة ما يثبتته عند من يدعونه. ولكن ما يثير الانتباه في هذا النص، هو وجود مرحلتين كبيرتين في المسار التصاعدي لـ "الإنسان" نحو إنسانيته القصوى التي هي كماله: هناك أولا: المرحلة "الإنسية"، التي اعتبرت "فيزيقية" بالأساس؛ إذ لا تنفصل عن الخلفية العلمية وعن الطابع الواقعي. أما المرحلة الثانية، فيمكن وصفها بالمرحلة "مابعد إنسية"، وهي التي يتجاوز فيها "الإنسان" حدوده الفيزيقية، لينخرط في عوالم "الميتافيزيقا"، ويتأهل للخوض في أخبار الآفاق العلوية. ليصبح المفهوم الإنسي للأخلاق عند مسكويه أشمل بكثير عندما ضمّ جزءا كبيرا من الأمور الإلهية ضمن مجال العقل، ليذهب به (العقل) إلى حدوده القصوى في ما يخص آفاق وامتدادات السلوك الأخلاقي. وبالتالي، سيكون كل جانب من الجوانب المتعلقة بـ "الإنسان" داخل حقل إمكاناته، باعتباره قد وثب نحو مجال أوسع يستطيع استيعاب⁵⁰ أفعاله الحرّة التي تكثرت كلما كبرت قدرة العقل التي تفوق "الإنسان" نحو الهيمنة المعرفية على نفسه أولا ثم على العالم من خلال لعب دور الوسيط بين الله والمخلوقات. وكل المراتب الخلقية التي تمّ قطعها بين هاتين النقطتين: نقطة البداية التي هي الإحاطة بالنفس، والنقطة البعيدة والمحطة الأخيرة التي هي النبوة، ليست سوى انعكاس واضح للفتنة العلمية والواقعية التي تكتسيها الأخلاق الإنسانية عموما من خلال أطروحة كتاب "التهذيب"، والتي دافع عنها مسكويه، حتى يكون الغرض من ورائها إضفاء مفهوم جديد على "الإنسان" وعلى ما يصدر عنه من أفعال. إنه مفهوم يجعل منه كائنا حرا ومتعاليا، دأبه تجاوز الضرورات والحتميات التي تعيق حريته في الفعل، وما كان ممكنا أبدا أن تتأسس فلسفة أخلاقية حرة ومتعالية خارج الإطار الإنساني الذي يضمنها ويذكرها، وكذلك خارج الإطار الواقعي الذي يجعلها ممكنة أكثر. وبهذا، فإن المنظومة الأخلاقية عند المعلم الثالث في مدوّنته "تهذيب الأخلاق"، لا ينفصل عنصر الوعي الأخلاقي فيها عن الشرط الواقعي والإبيستيمولوجي،

⁴⁸- مسكويه (أحمد بن محمد بن يعقوب)؛ تهذيب الأخلاق؛ دراسة وتحقيق: عماد الهلالي، منشورات الجمل - الطبعة الأولى - 2011م، ص ص 301-302

⁴⁹- راجع: الشهرستاني (أبو الفتح)؛ الملل والنحل: الجزء الأول؛ تحقيق: أمير علي مهنا وعلي حسن فاعور، دار المعرفة، بيروت/لبنان، الطبعة الثالثة - 1993م.

⁵⁰- بمعنى الضمّ والجمع والاحتواء.

وعن تعالي "الإنسان" عن الضرورة والحتمية، ودخوله حيز الحرية. من هنا فقط، يمكن تحديد "الإنسان" بوصفه قيمة أخلاقية محضة.

3- "الإنسان" بين الحرية والضرورة والمسؤولية:

« (...) الخيرات والشور في الأفعال الإرادية، هي إما باختيار الأفضل والعمل به، وإما باختيار الأدون والميل إليه».⁵¹

تعكس أطروحة: الوعي الأخلاقي، وواقعية الأخلاق وعلميتها، عمق الفلسفة الأخلاقية عند مسكويه، فلسفة تتجاوز الحدود الوهمية⁵²، باحثه عن مساحات أرحب للعقل، وتجعل لكل فعل إنساني شرطاً إمكان حدوثه بشكل معقول، يُقوِّدُ لأخلاق ممكنة وإنسية وعملية. فكيف أسهمت أطروحتنا: الوعي الأخلاقي، وواقعية الأخلاق وعلميتها في توسيع مجال الحرية واختيار الأفعال الإنسانية؟ وهل يمكن الحديث فعلاً عن حدود قصوى للمعقولة والصرامة العلمية والمنطقية، وحرية الاختيار في الأخلاق إلى حد تجاوز الضرورات جميعها، أم أن الواقعية في أخلاق مسكويه تفرض علينا - مرة أخرى - الاعتراف بشيء من هذه الضرورات؟

ولما كان الفيصل بين "الإنسان" والحيوان هو الفضائل التي يُوتى جميعها بالعقل والروية، كان لزاماً على كل فعل ألا يخرج على إرادة القوة العاقلة واختيارها، لكي تتخذ الحرية بهذا المعنى، دلالة مسؤولية؛ أي أن ممارستها الفعلية مشروطة ومقرونة بحضور المسؤولية في العواقب. ولهذا، فسّر مسكويه حالة من وصفهم بـ"الشقاء"⁵³ قائلاً: « وإنما يشقى العبد إذا حصل على أربع خلال⁵⁴؛ أولهما: الكسل والبطالة ويتبعها ضياع الزمان وفناء العمر بغير فائدة إنسانية؛ والثاني: الغباوة والجهل المتولدات عن ترك النظر ورياضة النفس بالتعاليم (...). والثالث: الوقاحة التي ينتجها إهمال النفس إذا تتبعت الشهوات وترك زمها عن ركوب الخطايا والسيئات؛ والرابع: الانهماك الذي يحدث من الاستمرار في القباح وترك الإنابة»⁵⁵. هي خلالٌ إذن، أسبابها ذاتية وممكنة لـ"الإنسان" من حيث فعلها أو تركها، إذ الذي يأتيها وينتج عن فعلها هذا الكم الكبير من الأخلاق السيئة، هو بالضرورة مسؤول عن تلك الإرادة التي وجهها نحو إتيانها؛ أي أنه لم يُعمل الملكة الفكرية بما يكفي لتجنبها، وتعويضها بأخرى أحسن منها؛ فـ"الكسل": عزوف النفس عن الاجتهاد، وتمنعها عن ممارسة ما

⁵¹ مسكويه (أحمد بن محمد بن يعقوب)؛ تهذيب الأخلاق؛ دراسة وتحقيق: عماد الهلالي، ص 247

⁵² هي الحدود اللامعقولة التي تعيق حرية "الإنسان" وإرادته.

⁵³ يمكن التمييز بين معنيين لمفهوم "الشقاء" عند مسكويه: الأول: "الشقاء القسدي": وهو الذي ينتج عن اختيار "الإنسان" باتباع الشهوات. والثاني: "الشقاء العرضي": وهو الذي ينتج شراً عن غير قصد صاحبه. راجع: مسكويه (أحمد بن محمد بن يعقوب)؛ تهذيب الأخلاق؛ دراسة وتحقيق: عماد الهلالي، منشورات الجمل، الطبعة الأولى - 2011م، ص 344

⁵⁴ جمع "خلّة": وهي الخصلة.

⁵⁵ المصدر السابق، ص 348

ينفعها من الأعمال. وينتج عن ذلك طبع نفسي سيء، يعاني "الإنسان" بسببه من ضياع الوقت من دون "فائدة إنسانية". أما "الغبابة والجهل"، فَمَرَدُّهُمَا إلى رفض التعلم واكتساب المهارات المفيدة التي ترفع عن العقل هاتين الصفتين الشنيعتين. والسبب لا يزال في يد "الإنسان" وفي متناوله، وهذه حال سارية على الخلتين الباقيتين وكلّ من تطابقت في الأعراض والنتائج. إن هذا المقتبس ليس يعكس سوى التعميم الذي يمكن التعامل به مع مدونة "التهذيب"، بما هي دعوة إلى تحرير قيود "الإنسان" ليس ضد الأخلاق وإخراجه منها، ولكن ليعود "الإنسان" إلى هويته الأخلاقية التي بها شرف على جميع الكائنات بإرادته. ولئن كان استناد جلّ الأفعال مشروط بالإرادة⁵⁶ التي استعملها مسكويه في مقالاته السبعة من كتاب "التهذيب"، مؤكداً ومحاججاً على ضرورة أن يصدر الفعل باختيار صاحبه، فإن الإرادة عنده ليست حكراً على الأفعال المقصودة (القصدية)، وليس يجب بالضرورة أن ترتبط بالملكة الفكرية، بل إنه (مسكويه) قد وسّع مجالها (الأفعال) لتشمل الانفعالات العاطفية والوجدانية لـ "الإنسان". فمسكويه، عَقَلَنَ الفعل ولم يهمل الشعور الدفين في دواخل "الإنسان" (الحب، الألفة...)، حرصاً منه على الانسجام الذي يتوجب على الذات التحلي به أمام ذاتها وأمام المجتمع و"الله". يقول المعلم الثالث: «(...) وهذه المحبات كلّها تحدث بين الناس خاصة لأنها تكون بإرادة وروية»⁵⁷. إذا كان العضو الذي يشعر بالحب، ويكون دليلاً وجوده (الحب) أو غيابه هو القلب من خلال تفاعلات "الإنسان" عاطفياً، فما الذي يدفع مسكويه لتصنيفه ضمن خانة المعقولات؟ وكيف يؤسس لذلك؟

لم يصنّف مسكويه هذا السلوك العاطفي، إلا تمييزاً للنوع الإنساني عن باقي الموجودات الأخرى، والتي تتحدّد في "الحيوان" و"الجماد". فإذا كانت الجمادات تحبُّ بموجب ميل طبيعي نحو ما يجذبها، وكان الحيوان يحبُّ بموجب الألفة، فـ "الإنسان" أحرى أن يبحث لنفسه عن ميزة أعلى وأرقى، وهي أن يكون حُبُّه اختياراً. ماذا يعني ذلك؟

حين تظهر الدوافع الطبيعية التي تملي على الحيوان المحبة، ولا تحصل إلا عن ألفة، معناه أن الحيوان قاصر عن تحقيق محبة باختيار؛ أي أنه كائن لا يملك الاختيار، بل تُلْزَمُه الضرورة الطبيعية بهذه الألفة التي يضمن بها بقاء نوعه⁵⁸. أما حال الجمادات، فيُفسَّر بالميل الطبيعي، وهو كحال الحيوان في السبب، ومخالف له في العرض، ذلك أنها من حيث السبب تسعى إلى تحقيق المحبة من دون اختيار؛ أي أنها هي الأخرى خاضعة للضرورة الطبيعية التي تملي على كل الجمادات الميل إلى أنواعها. ومن حيث العرض، فالحيوان يحصل له الحب إذا طال زمن بينه وبين بني نوعه، والجمادات يحصل لها الحب بالشوق إلى من تحب والميل إليه. و"الإنسان" وحده في نظر مسكويه من عليه اختيار المحبة، وليس لأجل المحبة بالأساس، بل لأجل الاختيار

⁵⁶- هناك تشديد كبير على مفهوم "الإرادة" في كتاب "التهذيب" لمسكويه، ونحسبه يؤكد في كل مرة على ضرورة تحرير الذات الإنسانية من كل إكراه خارجي يعيق حريتها.

⁵⁷- المصدر السابق، ص 360

⁵⁸- راجع: المصدر السابق، ص 360

الذي يضمن الحرية ويحقق إرادة "الإنسان" العاقل والمفكر. وهذا ما رامته هذه المقارنة بين "الإنسان" من جهة، وبين الحيوان والجماد من جهة ثانية، حيث إن الحيوان والجماد، يُفهم مما دُكر عن أسباب حصول المحبة فيهما، أنها خالية من الاختيار، وكلها من طبعهما الذي يصغر أمام طبع "الإنسان"، وهذا راجع لافتقادهما ملكة الفكر والرؤية، فإذا كان هذا كله، لزم أن يكون "الإنسان" مميزا عنهما، فتكون محبته بالاختيار لتصدر عن الملكة العاقلة بالأساس. والأمر نفسه يصدق على مرتبة الحكمة حين لا يبلغها "الإنسان"، فهذا لا يفسر بأنه دونها، أو أنها أعلى منه بشكل حتمي، بل كل ما يعنيه الأمر هو غياب إرادة كافية، لتحل هذه الصفة على الذات؛ أي أن الحكمة اختيار واع والتزام نحو العقل لتجاوز ما يُنتج من أضرار الحكمة في حال عدم تحققها. وقد فسّر مسكويه ذلك بقوله: «...» (ليس ينبغي أن يُفهم هنا أن البله هنا نقصان الحكمة، بل ما ذكرته من تعطيل القوة الفكرية بالإرادة).⁵⁹

تستلزم الإرادة في تحققها أو عدم تحققها وجود شرط المسؤولية، كحضور للوعي الذي يراقب الأفعال بما هي أسباب للنتائج، والتي بموجبها يصنف "الإنسان". لذلك؛ فغياب الحكمة أو حضورها هو بشكل ضمني غياب الوعي وإرادة الاختيار والانخراط في حيز اللاعقل الذي يستدمج الذات، والحال أن هذه وضعية أقل مما يليق بإنسانية "الإنسان". إذن، فالخروج عن سياق العقل لا يمكن إيجاد العذر له، بحكم الهوية التي تربط "الإنسان" بذاته وبالعالم كافة. وليس العذر يؤخذ إلا للأنواع الحيوانية، لأن «...» الأنعام إذا مُنعت الخيرات الإنسانية، حُرمت جوار الأرواح الطيبة ودخول الجنة التي وعد المتقون، فهي معذورة و"الإنسان" غير معذور؛ مَثَلُ الأوَّلِ مَثَلُ الأعمى إذا جار عن الطريق فتردّى في بئر فهو مرحوم غير ملوم، ومثل الثاني مثل بصير يجور على بصيرة حتى يتردى في البئر فهو ممقوت ملوم»⁶⁰. لا بدّ إذن، من إعادة قراءة هذا النص على ضوء السياق العام الذي يدور عليه كتابه "التهذيب"، والذي يفترض إقامة رابطة متينة بين الاختيار في الأفعال والمسؤولية الناجمة عن عواقبها. إذ أن ثبوت حرية "الإنسان" لا ينفي "المُتابعة الأخلاقية"⁶¹، وثبوت تصدّره سلّم الموجودات في العالم، لا ينفصل عن وجوب صدور «أفعاله كلها جميلة»⁶²، بل يزيد بفعل وجود ملكة مفكرة من تكريس حس المسؤولية على عاتقه، لكي لا يصير إنسانا حرا فقط، بل ومسؤولا كذلك. وبالتالي، فليس على "الإنسان" سوى إتيان الأفعال الجميلة بما هي كذلك، وبما هي تعبير عن رقيه وعن فعله الإرادي. والأمر عينه ينطبق على من اختار تغييب فكره ورويته عمدا، وطلبا للذة وانصياعا لها، وفي هذا السياق يقول مسكويه: « وأما السكران والغضبان والغيران إذا فعلوا فعلا قبيحا فإنهم يستحقّون العتب والعقوبة، لأن مبدأ فعّالهم إليهم، وذلك أن السكران باختياره أزال عقله، والغضبان والغيران اختارا الانقياد بهاتين القوتين إذا هاجتا

⁵⁹- المصدر السابق، ص 259

⁶⁰- المصدر السابق، ص 315

⁶¹- نقصد به النقد الذاتي الذي يلحق أفعال "الإنسان" بعد صدورها عنه بإرادته.

⁶²- المصدر السابق، ص 233

بهما»⁶³. يُلاحظ بشكل قوي تغييب الأعداء، وسدُّ لباب الدُّرّاع التي يمكن أن يدخل منها أحد فيأتي ما يخالف الضوابط التي حددها كتاب "التهذيب"، لأن كل محاولة من هذا النوع، من شأنها أن تثير قلقاً في منظومة القيم المجتمعية، والتي يجب أن يكون التوافق عليها بما هي قوانين أخلاقية ينصاع لها "الإنسان" بإرادته، وحين يخالفها كذلك يكون تفسير ذلك أنه قد فعل ما فعل باختياره وإرادته.

إذن، فـ"الإنسان" في الحالات كلّها حرٌّ في أفعاله، سيئة كانت أم جميلة، والشرط الذي يحاسب به "الإنسان" على سوء فعله -مثلاً- هو إمكان حضور العقل والروية أثناء الفعل في الوقت الذي عُيِّب فيه. وهنا مَكْمَنُ الارتباط الوثيق بين الحرية كمارسة تتأسس على الإرادة الفعلية والاختيار العقلي، وبين المسؤولية و"المتابعة الأخلاقية" لعواقب الأفعال أمام معيار العقل بوصفه ضامناً لاستمرار الخلق في الزمان والمكان.

إذا ثبت من خلال هذه العيّنات من نصوص كتاب "التهذيب"، أن المسؤولية مرحلة لا بد منها وراء كل فعل إنساني، بوصف هذا "الإنسان" كائناً عاقلاً ومفكراً، فما حدودها؟ وهل "الإنسان" مسؤول عن كل سلوكياته فعلاً؟ وهل يمكن تفسير تلك المساءلة بأنها تقرير ضمني يحسم في ضرورة خضوع كل أفعال "الإنسان" لمملكته العاقلة، أم أنها (المساءلة/المسؤولية) انعكاس لما هو «ممكن الحدوث»⁶⁴ فقط، ولا يُسأل "الإنسان" عن الضرورات الحتمية الخارجة عن حقل إمكاناته؟

يعتاص⁶⁵ على الكائن الإنساني الإحاطة بكل مناحي الوجود لضبطه وتحصيله، كي يكون معقولاً وممكناً برمته. لذلك فإن جانب المعقولية (الذي سبق الحديث عنه) يحتم الأخذ بعين الاعتبار الضرورات التي تسير الإنسان وتحد من حريّاته أيضاً، هذا علاوة على أن الواقعية تفترض أخلاقاً ممكنة وعملية. وكذلك، فإن الحتميات التي لم يُغفلها مسكويه، واعتبرها عوائق موضوعية، ليست من اختيار "الإنسان". وقد أورد منها في كتاب "التهذيب" ما يبين:

أولاً: أن الإنسان رغم ما تخوّله له اختياراته بفعل الإرادة، لا يعني أبداً الانفصال عن الوعي بما يعيق حريّته.

ثانياً: أن الوعي بهذه العوائق جزء من التحرر الذي يؤسس عليه مسكويه أخلاقه في كتاب "التهذيب".

بناء على ما سبق، يمكن تَعْيِينُ الحتميات التي تُحدُّ من إرادة "الإنسان" وحريّته في:

⁶³- المصدر السابق، ص 344

⁶⁴- أركون (محمد)؛ نزعة الأنسنة في الفكر العربي: جيل التوحيدي ومسكويه؛ ترجمة: هاشم صالح، دار الساقى، بيروت/لبنان، الطبعة الأولى 1997م، ص 481

⁶⁵- يصعب ويمتنع.

الضرورة الطبيعية - الجغرافية:- يعتبر مسكويه هذا العنصر الطبيعي، عاملاً أساسياً في تأسيس أخلاق "الإنسان"، مبيناً أن المجتمعات التي تعيش في المناطق النائية من الأرض، تبتعد عن التمدن، لأنها تعيش حالة طبيعية تشبه حالة الحيوان. يقول مسكويه: «(...)» وأول هذه المراتب في الأفق الإنساني المتصل بآخر ذلك الأفق الحيواني، مراتب الناس الذين يسكنون في أقاصي المعمورة من الشمال والجنوب (...)، وأشباههم من الأمم التي لا تُمَيِّز عن القروء إلا بمرتبة يسيرة»⁶⁶. تجب الإشارة هنا، إلى أن مظانَّ الضرورة تكمن في عدم اختيار هذا المجتمع من الناس، السكن في هذه المنطقة من الأرض؛ أي أنهم خاضعون لاحتامية لم يختاروها. وصارت هذه الضرورة تتحكم في مستواهم من الإنسانية من جهة، إذ أنهم أرقى طبقة حيوانية وأخس طبقة إنسانية، ومن القيم والأخلاق التي لا تنفصل هي الأخرى عن معيار التراتبية الإنسانية من جهة ثانية، والتي بموجبها يمكنهم الارتقاء في سلم المراتب الإنسانية. فـ"الإنسان" عند مسكويه ينبغي له السعي نحو الفضائل بغير تحقير معنى فعلي وراق للإنسانية. ولكن والحال هذه، يكون "الإنسان" أقل مرتبة إذا تركزت فيه أخلاق المناطق النائية من الأرض، وهو أمر لم يختره. وكل لهذه القضية، يقول مسكويه: «(...)» ثم تتزايد فيهم قوة الفهم إلى أن يصيروا إلى وسط الأقاليم، فيحدث فيهم الذكاء وسرعة الفهم والقبول للفضائل»⁶⁷. من هنا يمكن استنتاج عنصر أساسي، وهو: أن العامل الطبيعي الذي يتحدد جغرافياً، مرتبط بما يحصله الإنسان من سلوك وقيم داخل مجتمعه. وكان المجتمع صار هو الآخر حتمية وضرورة لا بد من الخضوع لها، إذ أن الانتقال من منطقة قاصية (بعيدة ونائية) إلى منطقة وسطى من الأرض، هو انتقال من إطار ثقافي ومجتمعي يتحدد فيه القيم بمعايير طبيعية حيوانية، إلى إطار أكثر تمدناً⁶⁸، إذ التمدن يكون في المناطق العامرة بالناس، حيث تظهر الأخلاق فيهم وتميَّز وتهذب. واتخاذ هذا المنحى التصاعدي من أخلاق الحيوان المرتبط بـ"الأقاصي" (لا تُمَيِّز {أخلاقهم} عن القروء إلا بمرتبة يسيرة)، إلى أخلاق الإنسانية (الفهم، الذكاء، قبول الفضائل)، يفسر ذلك الترابط بين أفراد المجتمعات بجغرافيتهم الطبيعية التي تسيّرهم.⁶⁹

66- مسكويه (أحمد بن محمد بن يعقوب)؛ تهذيب الأخلاق؛ دراسة وتحقيق: عماد الهلالي، منشورات الجمل - الطبعة الأولى - 2011م، ص 299

67- المصدر السابق، ص 300

68- "التمدن" في نظر مسكويه، مرتبط بالأفراد الذين يعيشون في جماعة واحدة تضمهم، ويسعون إلى الفضائل لتجاوز حالة الحيوان وتحقيق معنى الإنسانية.

69- نجد الفكرة نفسها عند عبد الرحمان بن خلدون بخصوص تأثير الهواء في أخلاق البشر، حيث يقول: «قد رأينا من خلق السودان على العموم الخفة والطيش وكثرة الطرب فتجدهم مولعين بالرقص على كل توقيع موصوفين بالحمق في كل قطر والسبب الصحيح في ذلك أنه تقرر في موضعه من الحكمة أن طبيعة الفرح والسرور هي انتشار الروح الحيواني وتفشيها وطبيعة الحزن بالعكس، وهو انقباضه وتكاتفه. وتقرر أن الحرارة مفسية للهواء والبخار مخللة له زائدة في كميته ولهذا يجد المنتشي من الفرح والسرور مالا يعبر عنه وذلك بما يداخل بخار الروح في القلب من الحرارة العزيرية التي تبعثها سورة الخمر في الروح من مزاجه فينتشى الروح وتجيء طبيعة الفرح وكذلك نجد المنتعمين بالحمامات إذا تنفسوا في هوائها واتصلت حرارة الهواء في أرواحهم فتسخت لذلك حدث لهم فرح وربما انبعث الكثير منهم بالغناء الناشئ عن السرور. ولما كان السودان ساكنين في الإقليم الحار واستولى الحر على أمزجتهم وفي أصل تكوينهم كان في أرواحهم من الحرارة على نسبة أبدانهم وإقليمهم فتكون أرواحهم بالقياس إلى أرواح أهل الإقليم الرابع أشد حراً فتكون أكثر تفشياً فتكون أسرع فرحاً وسروراً وأكثر انبساطاً وبيجى الطيش على أثر هذه وكذلك يلحق بهم قليلاً أهل البلاد البحرية لما كان هواؤها متضاعف الحرارة بما يعكس عليه من أضواء بسيط البحر وأشعثه كانت حصتهم من توابع الحرارة في الفرح والخفة موجودة أكثر من بلاد التلول والجبال الباردة وقد نجد بسيراً من ذلك في أهل البلاد الجزيرية من الإقليم الثالث لتوفر الحرارة فيها وفي هوائها لأنها عريقة في الجنوب عن الأرياف والتلول واعتبر ذلك أيضاً بأهل مصر فإنها مثل عرض البلاد الجزيرية أو قريباً منها كيف غلب الفرح عليهم والخفة والغفلة عن العواقب حتى أنهم لا يدخرون أقوات سنتهم ولا شهرهم وعمامة مآكلهم من أسواقهم. ولما كانت فاس من بلاد المغرب بالعكس منها في التوغل في التلول الباردة كيف ترى أهلها مطرقين إطراق الحزن

الضرورة السيكولوجية - النفس:- إذا كان المنهج الذي يعتمد مسكويه في "تهذيب الأخلاق"، هو السهولة واليسر والتعليم الممنهج⁷⁰، فلأنه زعيم⁷¹ بأن "الإنسان" يصدر عنه فعل الخير وفعل الشر. ليس لأنه يختاره بعقله، بل لأن العقل لا يختار إلا الجميل دوماً في نظر مسكويه. ولكن، لأن النفس تقوده بشكل غير واع إلى فعل ما لا يحبّه عقله، بسبب التضارب الذي يحصل بين قواه (العاقلة، الغضبية، الشهوانية). ولذلك باتّ التّهذيب لتجاوز هذه الوضعية الضرورية في حركة النفس، وعلاقتها بالسلوك الإنساني في نزوعها نحو ممارسات لا تليق بمقام الإنسانية، أهم من تعديل بعض الأخلاق الناقصة وتكميلها لتبلغ بصاحبها التمام. وهذا نص يبين خروج الفعل الإنساني عن سيطرة صاحبه في بعض الحالات. يقول المعلم الثالث: «فإن أنت أثرت الفعل الجميل في وقت، وجاذبتك القوة الأخرى إلى اللذة وإلى خلاف ما أثرت، فاستعن بقوة الغضب التي تثير وتهيج بالأنفة والحميّة، واقهر بها النفس البهيميّة، فإن غلبتك مع ذلك ثم ندمت وأنفت فأنت في طريق الصلاح فتم عزيمتك واحذر أن تعاودك بالطمع فيك والغلبة لك»⁷². فالنفس إذن، مجبولة على اختيار الفعل انطلاقاً على الهيئة النفسية⁷³ التي هيمنت عليها، وكأن "الإنسان" في وضعية تأهب مستمرة، ينتظر من هي القوة التي ستبادر بالتقرير في مصير الفعل، ليردعها إن كانت خارجة أو مخالفة لمبادئ الملكة الفكرية (القوة العاقلة)، أو يزكّيها إن كانت موافقة لها وصادرة عن مشورتها. فـ"الإنسان" بهذا المعنى، تصدر عنه أفعال ليست من تدبيره ولا اختياره.

الضرورة العقلية - المنطقية الصوريّة:- أطر مسكويه منظومته الأخلاقية ضمّن تفكير منطقي صوري، معيار صدقية القضايا فيه يتصل بمدى مقبوليتها أمامه (العقل)، وغياب التناقض داخلها. إلا أن هذه الصرامة المنهجية قد أقحمت أخلاق مسكويه في مربع محدد لا يمكن تجاوزه، بل يصير كل سلوك خارج خطأ يجب تفاديه. «فهذا العقل هو الذي ينسج حول نفسه، كما العنكبوت، خيوط الضرورة ويسجن نفسه داخلها بكل تلذذ ونعيم»⁷⁴. يسجن العقل الصوري نفسه داخله، فيحرره في آن ويسجنه في آن أخرى بأشكال الضرورات. إذن، فالبناء المعرفي الذي يوطر الأخلاق عند مسكويه، يجد نفسه مقيّداً للحرية في الوقت نفسه الذي يسعى فيه لتحرير "الإنسان".

وكيف أفرطوا في نظر العواقب حتى أن الرجل منهم ليدخر قوت سنتين من حبوب الحنطة وبيباكر الأسواق لشراء قوته ليومه مخافة أن يبرزاً شيئاً من مدخره وتتبع ذلك في الأقاليم والبلدان تجد في الأخلاق أثراً من كيفيات الهواء والله الخلاق العليم وقد تعرض المسعودي للبحث عن السبب في خفة السودان وطيشهم وكثرة الطرب فيهم وحاول تعليقه فلم يأت بشيء أكثر من أنه نقل عن جالينوس ويعقوب بن إسحاق الكندي أن ذلك لضعف أدمغتهم وما نشأ عنه من ضعف عقولهم وهذا كلام لا محصل له ولا برهان فيه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم». ابن خلدون (عبد الرحمان)؛ المقدمة؛ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت/لبنان، 2007م، ص ص 101-102

⁷⁰- أنظر: مسكويه (أحمد بن محمد بن يعقوب)؛ تهذيب الأخلاق؛ دراسة وتحقيق: عماد الهلالي، منشورات الجمل - الطبعة الأولى - 2011م، ص 233

⁷¹- صيغة مبالغة فعل "زعم/يزعم".

⁷²- المصدر السابق، ص ص 287-288

⁷³- العاقلة، الغضبية، الشهوانية.

⁷⁴- أركون (محمد)؛ نزعة الأنسنة في الفكر العربي: جيل التوحيدي ومسكويه؛ ترجمة: هاشم صالح، دار الساقى، بيروت/لبنان، الطبعة الأولى 1997م، ص 471

على ضوء ما سبق، يمكن القول: إن إشكالية الحرية والضرورة المتعلقة بالأفعال الإنسانية، قد شكّلت محور الفكر الأخلاقي عند مسكويه، وخلفية أساسية ينبني عليها كل فعل. ولم تكن الحتميات التي تم إيراد بعض مظاهرها، سوى انعكاس للحدود الواسعة التي يُمارَس فيها الفعل الأخلاقي؛ أي أن العوائق التي اعتبرت حتميات، هي في الحقيقة مساحات أبعد من الحدود التي رسمها مسكويه لحرية الأفعال، وهي لا تختص في مضمونها بالجانب العملي من الأخلاق التي يؤكد عليه في كتاب "التهذيب"، بل هي قرارات لم يكن لـ"الإنسان" فيها رأي، وبالتالي هي نتاج واقعية الفكر الأخلاقي المسكوي الذي لا يقدّم حرية مطلقة، بقدر ما يرسم معالم إرادة حرّة وممكنة في حدود المعقول. وهذه من ميزات الفلسفة العربية الإسلامية التي «...» سوف نُدهش القارئ إذا ما قلنا له فوراً، بأنها {الفلسفة العربية - الإسلامية} - تُحوّل، خلصة، الضرورة إلى حرية⁷⁵.

أفرز التنقيب عن ماهية الأخلاقية لـ"الإنسان" من داخل كتاب "التهذيب"، وعلى ضوء عناصر: الوعي الأخلاقي - الضمير -، والإنسية والمعقولية والعلمية، والحرية والضرورة والمسؤولية، خلاصات يمكن جردها كالآتي:

أولاً: أظهر الوقوف عند الوعي الأخلاقي فكرة الدافع العقلي إلى الفعل عند مسكويه، وكيفية تأسيسه في ذات الإنسان. كما اتضح أن الضمير الأخلاقي معيار الخلق العقلي بامتياز، إذ يمكن للأفعال أن تبدو في ظاهرها خيرة، ولكنها في الأصل لم تنبع عن قناعة أخلاقية (أن تكون الأفعال لذاتها)، مما يبين أن أخلاق مسكويه، لا بد لها من مرجعية إنسانية عقلية، وقد حدد لها مساحة داخل الملكة الفكرية، لتصدر عنها الأوامر الأخلاقية. إذن، تصدر الأخلاق في نظر مسكويه، عن الجانب الأخلاقي في العقل.

ثانياً: تتميز أخلاق مسكويه في كتاب التهذيب بطابع المعقولية المتمثل في قابليتها لأن تصير علماً، وإمكانية حصولها في "الإنسان"، ومن هنا تبرز الواقعية التي تجعل من السلوك الإنساني فعلاً يلئم حاجياته الطبيعية، وترسم له منهجية واضحة في تهذيب كل إفراط يربح كفة ممارسة معينة، ويحقق له (السلوك الإنساني) الاعتدال. ثم العلمية التي تعكس الإطار المعرفي الذي تنخرط فيه الأخلاق، وتخضع لمواضع المنطق الصوري الذي يحدد الأسس المعرفية الصحيحة للسلوكات الأخلاقية، فيكون قياس الفعل بمعيار قياس القضية المنطقية حتى تستقيم واختيار العقل. حين تجتمع هذه العناصر جميعها (المعقولية، الواقعية، العلمية) فإنها تُقوِّد لركائز الأنسنة التي تُعلي من شأن "الإنسان" وتعتبره محور المعرفة والقيم في العالم. ومن هذا المنطلق، يُصنّف فكر مسكويه ضمن الأنساق الفلسفية الإنسانية Humanisme في السياقات العربية الإسلامية الكلاسيكية.⁷⁶

⁷⁵ - المرجع نفسه، ص 469

⁷⁶ - أنظر: المرجع نفسه.

ثالثاً: تفترض الفلسفة الأخلاقية لمسكويه حرية الإنسان كاملة وكاملة، ذلك أن الحرية شرط أساسي لممارسة الفعل الأخلاقي النابع عن إرادة الذات واختيارها من دون أية إكراهات خارجية، ولا يتأتى ذلك إلا إذا حصلت روية ونظر عقلي مبني على الحكمة. ولا يكفي أن يكون الفعل حراً ما لم يكن "الإنسان" متحملاً لمسؤوليته تجاهه، فالحرية إذن، لا تنفصل عن المسؤولية. وتمتد وظيفة المسؤولية أمام الأفعال الإرادية الحرة، إلى حد الوعي بالضرورات والاحتمالات التي تعيق اختراق "الإنسان" لتحديد المصائر الكبرى في العالم: (المكونات الأولية للنفس، الانتماء لرقعة جغرافية معينة دون سابق اختيار...).

بهذا المعنى، سيتخذ "الإنسان" معنى مركزياً في الكون، حين يعين كفيصل للتفرقة بين الخير والشر، الجميل والقبيح...، وحين يكون كلّ فعل استجابة لإرادته، وحين يكون العالم موجود له/فيه/لأجله.



MominounWithoutBorders



@ Mominoun_sm



Mominoun

الرباط - المملكة المغربية

ص.ب : 10569

هاتف: 00212537779954

فاكس: 00212537778827

info@mominoun.com

www.mominoun.com